المحاضرة الأولى في مقياس ما قبل التاريخ

تمهيد:

تطورت الدراسات التاريخية وتشعبت فروعها على مر الزمن، وأصبح الإنسان من قبل ظهور الكتابة والتدوين بتقاليده وأعرافه ومعتقداته ونشاطه اليومي ميدانا خصبا ومحورا ماديا لهذه الدراسات على مر الزمن. فها هو الباحث المعروف في حقل الدراسات الما قبل تاريخية الفرنسي بوشيه دوبرت (Boucher de perthes) على سبيل الذكر، الذي يعتبر من الأوائل الذين خاضوا ميدان البحث في هذه الفترة السحيقة كان يعتقد في سنة 1847 بأن دراسة هذه الفترة المجهولة والمفتقرة للوثائق المكتوبة تدفع الكثرين إلى الوقوف على المخلفات الأ ثرية لفترة امحت من الوجود بعد حدوث الطوفان[1] ولا ندري على وجه الدقة متى حدث هذا الطوفان الكبير وماذا ترتب عنه سواء في الوسط الطبيعي وبيئة الإنسان أو في الغطاء النباتي، والثروة الحيوانية السائدة أو في الإنسان بحد ذاته. حتى أنه في جميع أطواره في تلك الحقبة شكل موضوعا للبحث في حله وترحاله وجميع تقلباته وحركاته وسلوكياته في ماضيه الموغل في التاريخ؛ وكان منذ ظهوره على سطح الأرض هدفا للباحثين المتخصصين فيما قبل التاريخ يدرسون نشأته وتقدمه في وسط طبيعي معين مع الكائنات الحيوانية والنباتية التي كانت تتقاسم بيئته قبل أو بعد حدوث ذلك الطوفان الذي ذكر قبل حين. فما هي إذا هذه الدراسات التي تناولته منذ الأزمنة السحيقة؟ وما هو مدلولها؟ وكيف أصبحت على ما هي عليه اليوم؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلي:

1_ تعريف مصطلح ما قبل التاريخ:

مما لا شك فيه أن مصطلح ما قبل التاريخ خضع لعدة تحاليل وتفسيرات على مر الزمن وهو من دون ريب ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية _Préhistoire _ التي نقلت إلى اللغة العربية في فترات متأخرة لا سيما عند احتكاك العرب بالغرب عبر بوابة الاستعمار للدلالة على الفرع التاريخي الذي يبحث في حياة السلالات البشرية الباكرة في أماكن جغرافية مختلفة من المعمورة قبل تمكنها من استعمال الكتابة و التدوين أي قبل أن تعرف الحضارة كما نفهمها في عالمنا الراهن. وبهذا المفهوم المقتضب والخالي من التفسير الأكاديمي الموثق توثيقا عمليا، نذكر ببساطة أن علم ما قبل التاريخ يبحث أساسا في أصل وتطور حضارات الإنسان قبل معرفته لفكرة الكتابة والتدوين. وقد ظل الاعتقاد سائدا لآماد طويلة أن جل البشرية على تنوع عناصرها ووسطها الطبيعي بقيت تعيش حياة بدائية خالية من الترف والحضارة في الفترة الزمنية الممتدة من 4.5 مليار سنة إلى غاية ظهور الكتابة في سنة

---

1 _ Wiktor Stoczkowski : **« La Préhistoire : Les Origines du concept »**, bulletin de La Société préhistorique française, tome 90, n 1, France, 1993, Pp 13-21.

3200 قبل الميلاد تقريبا في بلاد ما بين النهريين في العراق ووادي النيل في مصر وهي فترة طويلة نوعا ما. ومن الدلالات التي نستنتجها أن ما قبل التاريخ يعد فرعا من فروع علم وفن التاريخ على حد سواء، وهو بالمختصر غير المخل يدل بصراحة ووضوح على الفترة الزمنية السابقة لظهور الكتابة، وهو يمثل كذلك ما يعرف عند جمهور العلماء والباحثين المتخصصين بالعصور الحجرية.

2_ موجز نشأة علم ما قبل التاريخ:

مما لا شك فيه أن علم ما قبل التاريخ نتج عن الأبحاث الميدانية التي قام بها ش الرز داروين في منتصف القرن التاسع عشر حوالي سنة 1859 على خلفية صدور كتابه أصل الأنواع الذي يبحث في أحوال الإنسان وتاريخ نشأته وتطوره، وبهذا المنطق تكون النشأة لما قبل التاريخ إنجليزية؛ يضاف لها قبل ذلك اهتمام رجال الكنيسة الأوروبية الذي بذلوا قصارى جهدهم في القرون السادس عشر والسابع عشر على اعتبار أن المخلفات المادية خاصة الأدوات والوسائل المصنوعة من الحجارة كانت حسب رأيهم من نتاج الطبيعة وتعليلهم في ذلك يرتكز على أن معظم تلك اللقى ومنها النيازك وجدت متفرقة في الطبيعة دون سابق إنذار غير أن هذه النظرة الساذجة بدأت في التغيير نظرا لتقدم الفكر في القرن الثامن عشر و التاسع عشر. وبعد سنة 1860 بدأت المؤسسات العلمية الفرنسية خاصة الفرع التابع لمتحف الآثار القديمة الوطني في باريس بإصداره مجلات علمية مهمة متخصصة في ما قبل التاريخ، وتنظيمه لملتقيات علمية دولية دورية وسنوية للتعريف بهذه الحقبة غير المعروفة عادة عند الناس والدارسين كافة، ساهمت من جهتها في بروز هذا العلم الذي أصبح علما قائما بذاته كبقية العلوم الأخرى يخضع لمعايير ومقاييس ومناهج مدروسة ومضبوطة بإحكام[2]. وربما من هنا نستطيع القول أن ما قبل التاريخ أخذ يتلون باللون الفرنسي الخالص وهذا لا يعني مطلقا أن الدول الأخرى لم تهتم بما قبل التاريخ الذي شرع يتطور منذ هذه الفترة تقريبا. وهناك ملاحظة في هذا السياق مفادها تنظيم ملتقى دولي في بروكسل ببلجيكا ضم 600 باحث متخصص مما قدم دفعا قويا لهذا العلم. ثم جاء مؤتمر موسكو في روسيا الذي استقطب قرابة 130 باحث متخصص رغم بعد المسافة وتفشي وباء الكوليرا آنذاك. لكن يمكن القول أيضا أنه في سنة 1904 عندما تأسست الجمعية الما قبل تاريخية الفرنسية من بعد ذلك الملتقى جاءت مرحلة جديدة اتسمت بظهور احترافية مؤكدة في ميدان علم ما قبل التاريخ. الأمر الذي يدفع إلى الا عتقاد بصحة ما أشرنا إليه قبل حين.

---

2 _ Nathalie Richard, **« L'institutionnalisation de La préhistoire »**, France, 1992, p, 189.